الحياة
تجريبي

فن منى حاطوم والسخرية السوداء

الثلاثاء، ٦ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥ (٠١:٠٠ - بتوقيت غرينتش)

النسخة: الورقية – دولي

سمير غريب

آخر تحديث: الثلاثاء، ٦ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥ (٠٥:٣٠ - بتوقيت غرينتش)

تجاوزت منى حاطوم أشكالاً فنية متعارفاً عليها، لم تتجاوز أشكال الرسم والتصوير والنحت المعروفة فقط، ولم تتجاوز الاتجاهات الحديثة في الفن بما فيها أكثرها طليعية وغرابةً مثل الدادا والسوريالية، بل تجاوزت أكثر اتجاهات الفن حداثة وأكثرها جرأة. على رغم تصنيف أعمالها طبقاً لأشكال التعبير ووسائله مثل الفيديو والأداء الحركي (بيرفورمانس) والمينيمالية وغيرها، إلا أنها تجاوزت حتى هذه الأشكال.

يمكن أن تقول عنها أنها فنانة مجنونة عندما تشاهد فيلم الفيديو الذي سجلته لنفسها من خلال وضع كاميرات تصوير دقيقة داخل جسدها وخارجه، وأطلقت على هذا الفيلم «جسد غريب»، وهو ما لم يفعله أحد غيرها من الفنانين على حد علمي. فإن لم تكن مجنونة فهي صادمة خبيرة في خلق التناقضات.

هذه هي الفكرة الأولى التي خرجت بها من معرضها الكبير المقام حالياً في مركز بومبيدو في باريس. احتفى بها هذا المركز احتفاءه بكبار الفنانين في العالم. وجاور معرضها هناك معرض الفنان والمعماري الشهير «لوكوربيزييه». أتابع المعارض الكبرى التي يقيمها مركز بومبيدو منذ عام 1980، أي بعد افتتاحه بسنتين. وهذه أول مرة يحتفي فيها المركز بفنان عربي بمثل احتفائه بكبار الفنانين في العالم على حد علمي. حقق لها معرضاً تذكارياً هو الأكثر اكتمالاً في عرض تاريخها الفني كله. عرض فيه أكثر من مئة عمل متفرد يمثل تنوع إبداعها، يغطي الفترة من 1977 وحتى هذا العام، وأصدر لها كتالوغاً كبيراً جامعاً.

شعرت بالفخر عندما رأيت اسمها العربي مكتوباً على إعلان ضخم على واجهة المركز، فقلة قليلة جداً من الفنانين العرب التي تصل إلى هذه المكانة، بخاصة وسط ما نعيشه من أحداث دموية. فلماذا احتفى بها هذا المركز الذي لا يحتفي مثل هذا الاحتفاء إلا بمن «دخل» بالفعل تاريخ الفن العالمي؟

الإجابة في السؤال. فلقد دخلت الفنانة، اللبنانية (بيروت 1952) الفلسطينية الأصل المقيمة بين لندن وبرلين، بالفعل تاريخ الفن بما أنجزته من إبداع متميز، وبما أسسته من اتجاه فني خاص. يعتمد هذا التصنيف أساساً على فكر الفنانة وفلسفتها بأكثر مما يعتمد على عملها اليدوي (أي استخدام يديها في العمل وليس كفنانة حرف يدوية). ففي أعمالها المجسمة والنحتية والتركيبية يمكن وصفها بأنها مصممة فنية، مثلما

نقول المصمم الهندسي أو العمراني. فهي تنطلق من الفكرة لتتخيل الموضوع وتصممه على اسكتشات ورقية وتحدد مقاساته وخاماته وألوانه، ثم تستعين بحرفيين أو ورش أو مصانع لتجسيد فكرتها وتنفيذ تصميمها. هذا نراه في أعمال جاهزة مثل «المنعزل»، وهو سرير أطفال مما يستخدم في المستشفيات بلا دهان ولا فرش. حولته من مكان دافئ وآمن للطفل إلى مكان بارد ومخيف. في الاتجاه الفكري - الفلسفي ذاته صممت أعمالاً ضخمة لا هي بالنحت ولا بالعمارة، لكن يمكن أن أطلق عليها «مجسمات فكرية ضخمة». مثل هذه الأقفاص الكبيرة المفتوحة من الحديد المتنوعة الشكل. كل شكل منها يعبر عن فكرة، والأفكار متقاربة ومتداخلة. فليفكر كل مشاهد في «فكرة» كل عمل براحته وفي دلالته، وليشعر به كما يشاء. مثلما يفكر في «مكعب» (2006) وهو مكعب كبير من أسياخ الحديد المتعامدة مغلق تماما. وقد صممت الفنانة مكعباً آخر (2009) أضخم مساحته 3 أمتار مكعبة، كله من الأسلاك الشائكة، أطلقت عليه «impenetrable غير قابل للاختراق». إذاً، فالفكرة والفلسفة هما الأهم في مثل هذه الأعمال، الخامة والتصنيع واللون والشكل وغيرها مجرد أدوات لتجسيد الفكرة والشعور بها.

مثال آخر من الأعمال الجاهزة التي صممتها منى وأطلقت عليها «حديقة عامة» (1993). أنظر ما هي هذه الحديقة؟ إنها كرسي معدني مما يستخدم عادة في الحدائق العامة في فرنسا، طلي باللون الأسود وقد وضعت على منتصف قاعدته مثلثاً من الشعر، في الأغلب من شعرها نفسه. هذه حديقتها العامة المشحونة بالسخرية السوداء، شكلاً ومعنى. مثل هذه الأعمال تذكرنا بالأعمال الجاهزة التي ابتكرها مارسيل دو شامب ضمن حركة الدادا عام 1917، وببعض من أعمال ماغريت ضمن الحركة السوريالية بعد ذلك.

من أعمال منى الصغيرة أو الميينيمالية سلسلة ألصقت في كل عمل منها بعضاً من شعرها على قطعة صغيرة من الورق في تشكيل حر، وأطلقت عليها «رسم بالشعر» (2003) كأن الشعر عندها أصبح خامة من خامات الرسم! ولديها سلسلة أخرى أطلقت عليها «شعر هنا وفي كل مكان» (2004)، وقد عادت عام 2013 لتستخدم هذا الشعر كالخيط في ورق تواليت، ولا أعرف كيف تمكنت من ذلك لأن الشعرة رفيعة جداً والورق بعامة ليس مناسباً للحياكة فما بالك بورق تواليت؟ ووضعت هذه «اللوحة»! في إطار محترم أطلقت عليها «مجرى»!

إنها الفلسفة مرة أخرى ودائما. ذهن مشتعل، سخرية مرة وسوداء. استهزاء بالعالم المتناقض والحياة العجيبة، تحذير واحتجاج صارخ، ابتكار لا يهدأ بحثاً عن جمالية جديدة في كل عمل، وليس في كل اتجاه.

مثل هذه الأعمال الفنية هي بطبيعتها غير جماهيرية، ولا علاقة لها بسوق الفن. يمكن أن تنتهي في المتاحف، وهناك بالفعل متاحف تقتني أعمال منى حاطوم، ويمكن أن يوضع بعض منها في أماكن عامة. فمنى حاطوم ضد تجارة الفن، أو هي ضد بيع الفن أو امتلاكه فردياً. هي هنا، ضمن تيار متجدد من الفنانين بدأ بالدادا وبعض من السوريالية، ووصل إلى تيار ضد فكرة «خلود» الفن نفسه.

هي فنانة مثيرة للجدل بأعمالها. ومن الممكن الاختلاف على تقويمها. لكنها تمتلك الجرأة الكافية متجاوزة حتى خروقات الدادا والسورياليين. فهؤلاء استخدموا أدوات وخامات معروفة في التعبير عما فوق الواقع وعن الأحلام والكوابيس، وابتكروا العمل الفني من الأشياء الجاهزة. في العقود الأخيرة تم ابتكار فن التجهيز أو التركيب وفن التشكيل بالجسد الحي والأداء الحركي واستخدام الفيديو في الإبداع الفني. لكن منى حاطوم استخدمت هذه الأشكال وتجاوزتها. فشكلت، على سبيل المثل، أعمالاً فنية صغيرة بسيطة «مينيمالية» بأجزاء صغيرة جداً من جسدها نفسه مثل الشعر والجلد والأظافر. وعلى العكس من ذلك تماماً، صممت مجسمات ضخمة من الحديد وخريطة «مهولة» مضيئة للعالم تفترش الأرض. وما بينهما تعود إلى أرضها الأصلية «فلسطين» مستلهمة مأساة الشعب ومفردات تقليدية ومستخدمة كوفيتها الشهيرة وسجادها.

إذاً هي، وإن أغرقت في التجريبية وأبحرت في الاتجاهات الأوروبية الأكثر معاصرة مثل الحركية والمفاهيمية، وغامرت في الشكل الفني متجاوزة الحداثة، هي ابنة لهذا الجزء العربي الصغير من العالم الذي أصبح محور الصراع في الشرق الأوسط بجوانبه المختلفة منذ إنشاء دولة إسرائيل. هي كذلك في شكل مباشر أو غير مباشر، نصاً وروحاً. وإن كانت لغتها النصية جديدة ومتنوعة. تبدو أحياناً مغتربة وأحياناً أخرى شديدة المحلية. يمثل كثير من أعمالها واقعاً يعكس بيئة مشبوهة ومعادية، وتقدم لنا عالماً يتسم بالصراع والتناقضات. فمن أين استمدت كل ذلك إن لم يكن من عالمها الأصلي؟ في عالم تقوده التناقضات والتوترات والصراعات الجغرافية السياسية وتوجد فيه جماليات متنوعة، تعرض علينا منى حاطوم أعمالاً حققت عالمية وأصبحت نموذجاً لعدد من الفنانين المعاصرين.

قدم لنا المعرض رحلة عبر أعمالها اعتمدت على العلاقات الشكلية والحساسة بين هذه الأعمال من فنها المرسوم والمنحوت والمجسم القابل للعرض. أما تجاربها في الأداء والتعبير التشكيلي بجسدها (بيرفورمانس)، وتجاربها بالفيديو، التي عرفت بها الفنانة في البداية، والتي قامت بها خلال سنواتها الأولى في لندن فتُعرض مسجلة، فضلاً عن تصويرها الفوتوغرافي الذي يبدأ به المعرض بصورة كبيرة كأنها لوحة إعلانية لوجه الفنانة الجانبي (بروفايل) تنظر بعينيها إلى جندي صغير جداً من البلاستيك يصعد على أنفها. وكتبت على اللوحة الفوتوغرافية أمام وجهها بخط كبير «فوق جسدي الميت». سنلاحظ الجسد في أعمالها الفنية معبراً عن واقع مقسم ومحاصر سياسياً واجتماعياً.

هناك مرحلتان في مسيرة منى حاطوم الفنية: خلال الثمانينات استكشفت عالم البيرفورمانس والفيديو. لذا، كانت أعمالها ذات طبيعة سردية تركز على موضوعات اجتماعية وسياسية. من هذه الأعمال العرض

الجسدي الذي قامت به على رصيف أحد شوارع لندن عندما مشت حافية القدمين لكنها ربطت فردتي حذائها خلف قدميها. فمشت بتثاقل زاحفة بقدميها على أرضية الرصيف وسط دهشة المارة.

في سنوات التسعينات، ابتعدت الفنانة تدريجاً من هذا الشكل من الأعمال السردية التي قدمتها من خلال الفيديو والأداء الحركي الجسدي، وبدأت في التركيز على النحت والمجسمات الضخمة والتجهيز في الفراغ مع قطع من الأثاث وأشياء أخرى مألوفة قامت بتعديلها أو تكبيرها. الآن بصفتها واحدة من «الطليعيين» تقوم منى حاطوم بتجهيزات متأثرة بالفن الحركي وفلسفة الظواهر. بعض من تجهيزاتها ومنحوتاتها، ومعظمها له بعد سياسي، متأثر بالاتجاه «النسوي»، وهو ما أشرت إليه في مقال سابق لي نشر هنا «المرأة العربية والفن التشكيلي» (14 يوليو - تموز 2015). كما أبدعت أعمالاً على ورق بمواد غير عادية من الحياة اليومية، وصورا فوتوغرافية التقطتها أثناء رحلاتها.

من السهل القول أن أعمال منى حاطوم تعبر عن العنف والضغوط والتناقضات والصراع والمعاناة... إلخ التي يتعرض لها الإنسان المعاصر، بخاصة المنعكسة على جسده. لكنه يمكن القول أيضاً أن أعمالها تعبر عن المقاومة والتحدي وحب الحياة أو الانتصار لها، وفيها أيضاً سخرية سوداء وتكوينات من المصادفات الموضوعية وكلها من الإرث السوريالي الممتد. إلا أنه يبقى أن أعمال منى هي أكثر من ذلك وأبعد. إنها بحجم موهبتها غير المحدودة.

4 362